

كعب بن مالك

شاعر السيف والقلم

بين ضجيج معاركنا الضارية مع الصهيونية، وفي غمرة الكفاح الرهيب لاسترداد المقدسات، وإعلاء كلمة الله، واسترجاع ما اغتصب من الأرض، ومع خفقات الألوية التي جمعتها كلمة التوحيد والتقت تحتها أصدااء أصوات المجاهدين: الله أكبر الله أكبر، بين ذلك ومع هذا نقدم شاعرنا الذي جمع بين السيف والكلمة المثيرة المصورة في جهاده تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبلى بلاءه مع الغازين في فتوحات الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا :

كلمة

كعب بن مالك ابن أبي كعب، واسم أبي كعب عمرو بن القين بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ويكنى: أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن، وأمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بني سلمة، وينتهي نسبه إلى الخزرج والخزرج والأوس الذين سكنوا المدينة ينتهي نسبهم إلى ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عاص بن ماء السماء، وفي عامر بن ماء السماء يلتقى نسبهم مع قبيلة خزاعة التي سكنت مكة، ومع الغساسنة الذين ملكوا الشام، ومع المناذرة الذين ملكوا الحيرة، وكل أولئك نزحوا من اليمن واستوطنوا بعض جزيرة العرب، وهم من أصل قحطاني، فشاعرنا هذا من أصل يمني قحطاني.

السيف

ولك

كعب بن مالك في المدينة قبل هجرة الإسلام إليها ، وكان مولده في فترة اشتعلت فيها الحروب بين الأوس والخزرج فتفتحت عين الوليد أول ما تفتحت على غبار المعارك يملأ دروب المدينة وتغص به بطاحها ، وعلى منظر الدم تسفكه الأحقاد ، وتشتفي به الأنانية ، وسمع أول ما سمع صليل السيوف وصهيل الخيول وصيحات الإهابة والتحريض والإثارة وأناشيد الفخر ومقطوعات المراثي وأنات الثكالى وبكاء اليتامى .

واشتد عوده بين الملاحم التي شهدوها أو سمع أقاصيصها من أيام الأوس والخزرج وما أكثرها ومن بينها يوم بعث ، ويوم سميحة ، ويوم الدرك ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع .

وكم سمع من أبيه مالك ابن أبي كعب الشاعر صوراً لتلك الأيام وما قيل فيها ، وكم سمع من عمه قيس بن أبي كعب ما جادت به عبقرية الشاعرة في تلك المعارك .

فلم يكن بدعاً وقد نشأ في بيت الشعر والفروسية وبين تلك الملاحم أن يكون أحد أرباب السيف والقلم من شعراء العروبة .

ولم يكن بدعاً وهذا بيته أن نرى ابنه عبدالرحمن شاعراً وأن نرى ابن أبنه بشير بن عبدالرحمن شاعراً كذلك فهو واسطة العقد في بيت الشعر .

ولم يكن بيت كعب وحده في المدينة هو الذي اختص بين بيوتها بقول الشعر ، بل كل البيوت تفيض بالمشاعر والأحاسيس ، وتتدفق بالقوافي ، وذلك ما يرويه أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : قدم علينا الرسول عليه الصلاة والسلام وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، فقبل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا .

فكعب وهو ينشأ ويعيش في المدينة في وسط هذا المجتمع الشاعر وبين الملاحم المثيرة خليق به أن يكون شاعراً بل أن يكون مجيداً لأن للبيئة والوراثة أثرهما .



دين المجتمع المدني :

تقاسمت ذلك المجتمع الوثنية واليهودية فالوثنية يدين بها العرب من الأوس والخزرج وغيرهما ممن يعيشون في يثرب من القبائل العربية ، واليهودية يدين بها بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو المصطلق وغيرهم من اليهود الذين يعيشون في المدينة حولها .

ودان كعب كقومه بالوثنية .

ظهور الإسلام وانتشاره في المدينة



الإسلام أول ما ظهر في مكة ودعا محمد صلى الله عليه وسلم قومه فأمن بدعوته من شرح الله صدره للإسلام ثم راح يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج (وكان العرب يقدسون الكعبة ويحجون إليها في كل عام بعد مواسم الأسواق التي كانوا يشهدونها) ، وشاء الله أن يلتقي الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة بستة من الخزرج عند العقبة فعرض عليهم دعوة الإسلام فقبلوها ، ولما قدموا المدينة عرضوها على أقوامهم ففشت بينهم حتى كانت أحاديث بيوت المدنيين .

وفي العام الذي يليه التقى في الموسم في مكة (عند العقبة) اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه وكانت هذه بيعة العقبة الأولى ، وأرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم ابن عبد مناف ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، ويصلي بهم ،

وآمن بالإسلام في هذه السنة الكثير من الأوس والخزرج ومن بينهم شاعرنا (كعب بن مالك)



أول لقاء الشاعر برسول الله



كان العام التالي خرج الثرييون إلى الحج وبينهم كثرة من المسلمين فلما استقر بهم المقام خرج كعب بن مالك في صحبة البراء بن معرور يسألان عن (محمد) وما كانا يعرفانه فلقىهما رجل من أهل مكة فسألاه عنه فقال لهما : هل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟ قالا : نعم ، حيث كان يقدم على المدينة تاجراً ، قال المكبي : إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال كعب : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلمنا ، ثم جلسنا إليه .

فقال رسول الله للعباس : هل تعرف الرجلين يا أبا الفضل ؟

قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشاعر ؟ :

قال : نعم (وهذه شهادة لشاعرية كعب يشهد له بها من أوتي جوامع الكلم)

ثم واعد المسلمون من الأوس والخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على اللقاء عند العقبة ليلاً في أواسط أيام التشريق فلما كانت الليلة الموعودة خرجوا يتسللون إلى العقبة وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً ومعهم امرأتان هما : نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ، ووافاهم الرسول مع عمه العباس (وكان علي دين قومه) .

وتكلم العباس فقال : إن محمداً منا في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، .

فقالوا له : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال :
أَبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ .

فأخذ البراء بن معرور يده ، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أُرُونا (كناية عن النساء) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .

فقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسم الرسول وقال : بل الدمُ الدمُ والهدمُ الهدمُ (أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم) أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكذب يقر قراره في المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار وكان نصيب كعب بن مالك (شاعرنا) من تلك المؤاخاة أخوته لطلحة بن عبيد الله .

الغزوات التي شهدها كعب

بدأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه غزواته ليحقق الحق ويبطل الباطل كان كعب بن مالك واحداً من أولئك البواسل الذين خاضوا مع الرسول غزواته في سبيل الله إلا غزوة بدر وتبوك ، وذلك ما يحدث به كعب نفسه فيقول : ما تخلفت عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قط غير أنني كنت قد تخلفت في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاقب رسول الله أحداً تخلف عنها ، وتخلفت في تبوك وكنت قوياً ميسوراً !..

وشهد كعب بن مالك غزوة أحد وأبلى فيها أحسن البلاء وكان قد لبس لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولبس الرسول لأمنه ، وقد جرح كعب في أحد أحد عشر جرحاً وثبت على الرغم من جراحه وحينما صاح الكفار : قتل محمد ، ودقت الصيحات أسماع كعب راح يتفقد القتلى والجرحى فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ورأى عينيه تزهزان (تضيئان) من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا

هذا رسول الله ، فأشار إليه الرسول : أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به .

ما نزل في القرآن

أنزل الله في شأن كعب بن مالك قرآناً بعد تخلفه عن غزوة تبوك التي كانت بين المسلمين والروم ، وكانت في الصيف حيث الحر والجذب ، وحيث يهيم الناس بالأفياء ويهرعون إلى الظلال .



وقد روى ابن اسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان يقود أباه حين أصيب بصره فحدثه حديث تخلفه عن تبوك قال :

كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة - وتجهز رسول الله وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، ثم يقول : وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله

صلى الله عليه وسلم وطففت فيهم يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً (مطعوناً عليه) في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك .

فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه بُرداه والنظر في عطفيه .

فقال له معاذ بن جبل : بش ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً .

فسكت رسول الله فلما قفل الرسول من تبوك دخل المسجد وصلى ركعتين ، ثم جاءه المخلفون ، فجعلوا يخلفون له ويعتذرون فيقبل منهم ، حتى جلس كعب بين يديه .

فقال له الرسول : ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟

قال كعب : قلت : يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين غني ، وليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه ، إني لأرجو عقابي من الله .

فقال الرسول : قم حتى يقضي الله فيك ، وكان معه في مثل موقفه : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أبي أمية .

وكان كعب بن مالك بعد ذلك يخرج إلى الصلوات ، ويطوف بالأسواق ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد نهى المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة ، ولكن كعب بن مالك كان يصلي في المسجد مع الرسول ، ويسارقه النظر والرسول يعرض عنه ، وطالت مقاطعة المسلمين لهم .



وكان علم ملك غسان بذلك أرسل إلى كعب يطلب منه التزوح إلى الشام ليعيش في كنفه حيث يلتقي بملك غسان نسباً في عامر بن ماء السماء ، ولكن كعباً أحرق الرسالة . وبعد انقضاء أربعين يوماً على تلك المقاطعة جاءه رسول رسول الله يبلغه أن الرسول يأمره باعتزال زوجته ، فاعتزلها ، وبعد انقضاء خمسين يوماً من بدء المقاطعة ضاقت فيها نفسه ، وضافت عليه الأرض بما رحبت ، وكان قد ابتنى خيمة له في ظهر سلع .

سمع صوتاً يناديه : يا كعب بن مالك أبشر ، فخر ساجداً لله ، ثم نزل إلى المسجد فتلقيه الناس في طريقه بالفرح والتهنئة حتى سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له الرسول : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

قال كعب : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

قال الرسول : بل من عند الله .

قال كعب : يا رسول الله إن توبتي إلى الله أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله .

قال الرسول : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، ثم تلا الرسول :

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » .

وبهذا تاب الله على كعب بن مالك وصاحبيه بعد عذاب نفسي قضوا فيه خمسين يوماً بل عانوا منه منذ خروج الرسول إلى تبوك وتخلفهم عنه حتى ضاقت عليهم الأرض وضافت عليهم أنفسهم وكانت

توبة الله عليهم فأخرجتهم من الضيق إلى فرج الحياة يعيشون فيه مع الصادقين المتقين .

رواية الحديث

روكا كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأحاديث، وكل بني كعب قد روى عنه ما سمعه وما رآه من أفعال الرسول .
ومما رواه حفيده عن أبيه أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
والذي نفسي بيده لكانما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر .

(وكانما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هجاء كعب وحسان وابن رواحة لقريش حين عبأت شعراءها لهجائه فعبا الرسول لهم هؤلاء . كأنما يرى في هجائهم لقريش قوة فتك النبال في النيل من النفوس)
وربما كان طعن النفس أشد أثراً من طعن الجسد .



مواقف من الفتن الكبرى

كانت الفتن التي مني بها المسلمون في عهد عثمان أخطر فتنة مزقت وحدة المسلمين في بدء قيام أمتهم الكبيرة .
وكان بين كعب وعلي حوار في أمر عثمان وقتله ، ولم يقتنع برأي علي فاعتزله :
وله شعر يحرض فيه الأنصار على نصرته عثمان ويؤنبهم على خذلانهم له ومنه قوله :

فلو حلتهم من دونه لم يزل لكم مدي الدهر عز لا يسوح ولا يسرى
ولم تقعدوا والدأركاب دحانها يحرق فيها بالسعير وبالجمر

وكان كعب أحد من عاون عثمان على المصريين وشهر سلاحه ، فلما ناشد عثمان الناس أن يغمدوا سيوفهم انصرف كعب ، ولم ير أن الأمر يخلص إليه ، ولا يجترأ القوم على قتله ، فلما قتل وقف كعب على مجلس الأنصار في مسجد الرسول فأنشد :

من مبلغ الأنصار عني آية رسلاً نقص عليهم التبيان

حتى يقول :

حتى إذا خلصوا إلى أبوابه دَخَلُوا عليه صائماً عطشاناً
الله يعلمُ أنني لم أرضيه لكم صَنِيعاً يومَ ذاكَ وشاناً
والله لو شهد ابن قيسٍ ثابتٌ ومَعَاشرٌ كانوا له إخواناً
وأبو دُجَانَةَ وابنُ أقرمٍ ثابتٌ وأخو المشاهد من بني عَجَلاناً
قومٌ يرونَ الحقَّ نصرَ أميرهم ويرونَ طاعةَ أمرِهِ إيماناً

وقد عمر كعب حتى مات في خلافة معاوية .

كعب بن مالك أحد شعراء الرسول

كان كعب بن مالك أحد الشعراء المخضرمين وهو من شعراء المدر الذين عاشوا في المدينة فتأثروا، بأجوائها وطبيعتها وما في مجتمعاتها، وما اكتسبته من وقوعها في طريق تجارة الجزيرة العربية والشام وكان واحداً ممن شدوا بالشعر من أهل المدينة ، فلما أسلم كان أحد شعراء الرسول الذين نافحوا ووهبوا ألسنتهم للذود عنه وهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، وتولى ابن رواحة تعيير قريش بالكفر وعبادة مالا يضر ولا ينفع ، أما حسان وكعب فقد أخذوا يعارضان شعراء قريش ، ويردان على ما يقولون في المعارك والأيام ، ويذكر أن مثالب قريش ، وكانت قريش قد عبأت لهجاء الرسول : عبد الله بن الزبيري ، وأبا سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب ، وعمرو بن العاص .

ولم تم شاعرية كعب عن هجاء قريش قبل إسلامها ، كما لم تهدأ عن هجاء يهود المدينة بعد أن نقضوا عهودهم وغدروا وخانوا ، كما كان لشاعرية كعب أثرها في إرهاب قبائل العرب التي لم تسلم .

ومن شر ما قيل في قريش قول كعب :

زَعَمْتُ سَخِينَةً أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا فَلْيَغْلِبَنَّ مَغَالِبُ الْغَلَابِ

(والسخينة طعام من اللبن أغلظ من الحساء) وقد عبرت به قريش حتى سموا سخينة ، ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت قال : لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا

وقد حدثوا أن قبيلة دوس أسلمت خوفاً من المسلمين حينما بلغها قول كعب :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ وَتَرٍ وَخَبَبَرْنَا ثُمَّ أَغْمَدْنَا السُّيُوفَا
نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا

موضوعات شعره في الاسلام



أهم ما خاضت فيه شاعرية كعب من موضوعات شعره في الإسلام هو الغزوات والمراثي ، وخلال هذين الغرضين ساق الفخر والرد على المعارضين من شعراء قريش وتناول الهجاء وإن كان لم يصل فيه إلى الأعماق كما وصل حسان ، كما توعد وهدد الشائئين ، وحيناً نراه في بعض أبياته مؤرخاً ، وحقائق التاريخ لا تجتمع مع الجمال الفني الذي يتطلبه الشعر ، وكثيراً ما حرص ، وأثار النفوس إلى البذل وذلك في تصويره للغزوات ، وقدم في مراثيه مشاعر النفس الحزينة الجريحة حين يبيكي أخاً مسلماً وأروع ما قدم في ذلك السبيل مراثيه في حمزة وقتلى مؤتة .

وإليكم بعض النماذج لما قدمته شاعرية كعب بن مالك في الموضوعات المختلفة وعقب كل قطعة شرح بعض المفردات اللغوية التي قد لا تدرك مع تعليق موجز يوضح بعض ما تناولته الأبيات ، وذلك إذا كان فيها شيء من الغرابة على أجيالنا ، وقد يضطرننا الموقف إلى ذكر بعض أبيات لشاعر قرشي يستدعيها ردُّ شاعرنا عليه .

الفخر والرد



آوى الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ومن ثم نرى كعب بن مالك يفخر كثيراً بقومه الأوس والخزرج وبمواقفهم حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا معقلاً له يحميه من كل عدوان ، وكثيراً ما تصدى للرد على شعراء قريش فيما يقولون ، فحين يدعى ضرار ابن الخطاب شاعر قريش أن نصر المسلمين في بدر كان مرجعه إلى القرشيين المهاجرين وعلى رأسهم محمد ليطعن بذلك المنزلة الحربية التي كانت للأنصار فيقول :

فإن تظفروا في يوم بدرٍ فإنما	ياحمدَ أمسى جدكم وهو ظاهرُ
وبالتقرِّ الأخيارِ هم أولياؤه	يحامون في اللأواء والموتُ حاضرُ
يُعدُّ أبو بكرٍ وحمزةُ فيهمُ	ويُدعى عليٌ وسَطٌ من أنت ذاكرُ
ويُدعى أبو حفصٍ وعثمانُ فيهمُ	وسعدٌ إذا ما كان في الحربِ حاضرُ
أولئك لا من نتجت في ديارها	بنو الأوس والنجَّار حين تُفأخِرُ
ولكن أبوهم من لؤيٍ وغالبٍ	إذا عُدَّتِ الأنسابُ كعبٌ وعامِرُ



• اللأواء : الشدة

فيجيبه كعب بن مالك من قصيدة طويلة :

قضي يوم بدرٍ أن نلاقي مَعَشَرًا بغوا وَسَيْلُ البغي بالناس جَائِرُ
وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْفَرُوا مِنْ يَلِيهِمْ من الناس حتى جَمَعُهُمْ مُتْكَائِرُ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لَا تَحَاوُلُ غَيْرَنَا بأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعًا وَعَامِرُ
وفينا رسولُ الله والأوسُ حَوْلَهُ لَهُ مَعْقَلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرُ
وَجَمَعَ بَنِي النَّجَارِ تَحْتَ لِيَوَائِهِ يَمْشُونَ فِي الْمَآذِي وَالنَّقَعُ نَائِرُ

• المآذَى : بتشديد الياء : الدرع ، الذَّقَعُ : الغبار .

بهذه الأبيات يبين كعب بغي قريش ، وأنها حشدت واستنفرت وسارت بكل من تناسل من كعب وعامر تريد بذلك القضاء على الأوس والخزرج ، وقد كانت الأوس المعقل الذي احتسى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين آزره ونصروه ، وقد استطلت جموع بني النجار (وهم من الخزرج) بلوائه ومشوا في دروعهم وسط الغبار المتكاثف يصدون الجموع الكثيفة التي ألقت بها اليهم لؤي : من كعب وعامر.

وسكت كعب عن ذكر الأبطال القرشيين المسلمين الذين ذكرهم ضرار فلم يتناول مواقفهم وبطولاتهم بل لم يذكر للمهاجرين موقفاً في قصيدته هذه ، ولم يكن كعب يقصد بهذا السكوت الغض من شأن المهاجرين أو الإنقاص من مواقفهم في بدر ولكن الرد على ضرار هو الذي فرض على كعب هذا الموقف .



أبيات أخرى يفخر بالقوة الضاربة للمسلمين تلك القوة التي ضربت عظماء لؤي وحلفاءهم فهو المناخرهم حيث بكر المسلمون وداس المسلمون بالصوارم أبناء لؤي وحلفاءهم فقال :



ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى هَوَى فِي مَكْرِنَا لَمُنْخَرِ سَوْءٍ مِنْ لُؤْيٍ عَظِيمُهَا
فَوَلُّوا وَدُسْنَاهُمْ بِيضِ صَوَارِمٍ سَوَاءٌ عَلَيْنَا حِلْفُهَا وَصَمِيمُهَا

• الحلف : الحليف ، والصميم : من يرجع إلى لؤي أصلاً .

ويسترسل كعب في مفاخره فيفخر بالفضائل التي عرف بها الأنصار : فهم لا يرون القتل عاراً على من يحمي حماه وهم صُبر على الحوادث لا يبيكون على هالك يموت في المعارك ، وهم أبناء الحرب لا يجزعون مما تجره من ويلات

ولا يفحشون إن ظفروا ولا يتوجعون إن مسهم قرح فيقول :

ونحن أناسٌ لا نرى القتل سبةً على كلٍّ من يحمي الدمار ويمنعُ
جلادٌ على ريبِ الحوادثِ لا نرى على هالكٍ عيناً لنا الدهرَ قدَمَعُ
بنو الحرب لا نعيًا بشيءٍ نقولُهُ ولا نحنُ مما جرَّت الحرب نجزعُ
بنو الحرب إن نظفروا فلسنا بفحشٍ ولا نحنُ من أظفارها نتوجعُ

وكم من صورة أزجتها شاعرية كعب تندفق بمفاخر الأنصار ، وتحمل ما تحمل من تهديد للمشركين بالضربات السريعة التي يلاقونها من أولئك المحيطين برسول الله من أعدوا للحروب سرايل تقيهم وهم من أصل الفساسنة (وكثيراً ما افتخر كعب بهذا النسب) وقد طالت حمائل سيوفهم ، وهم ليسوا بالجناء ، ولا ممن فقدوا التروس والرماح وإنهم ليمشون في ظلمات غبار المعارك كما تمشي فحول الإبل البيض التي يمشي بعضها إثر بعض ، أو كما تمشي أسود الطل وقد بللها الرذاذ الذي أثارته ريح الشمال ، وهم في دروع سابعة محكمة تلمع كالغدير والقائم بها كالنهر الأبيض ، تلك هي الصور التي يقدمها فيفخر بها ويهدد ويرهب ، ويثير الرعب في قلوب المناوئين فيقول :

ولو هبطتم بطن السيل كافحكم ضرب بشاكلة البطحاء ترعيلُ
تلقاكم عُصبٌ حول النبي لهمُ مما يُعدُّون للهيجا سرايلُ
من جِذَمِ غَسَّانٍ مُسْتَرخٍ حمائلهم لا جناء ولا ميلٌ معازيلُ
يمشون تحت عمايات القتال كما تمشي المصاعبةُ الأدمُ المراسيلُ
أو مثل مشي أسود الطل ألقها يوم رذاذ من الجوزاء مَشْمُولُ
في كل سابعةٍ كالنهي مُحْكَمَةٌ قيامها فَلَجٌ كالسيف بُهْلُولُ

• الشاكلة : الطرف • الترعيل : الضرب السريع • الهيجا : الحرب وقصر للضرورة الشعرية • السرايل جمع سربال : القميص أو الدرع أو كل ما يلبس • الجذم بكسر الجيم : الأصل • الحمائل : علائق السيوف • الميل بكسر الميم جمع أميل : وهو من لا ترس له • والمعازيل : من لا رماح معهم • العمايات : الظلمات • المصاعبة : فحول الإبل • الأدم بضم الهمزة : الأبل البيض • المراسيل : التي يمشي بعضها إثر بعض • الطل : المطر الخفيف • ألقها : بللها • الرذاذ : المطر الضعيف • الجوزاء : نجم • المشمول : الذي هبت فيه ريح الشمال • السابعة : الدرع • النهي بكسر النون المشددة النهر • قيامها : القائم بها • الفلج : النهر • البهلول بضم الباء : الأبيض •

وما أكثر ما تغنى الشاعر ببسالة قومه في الغزوات حتى وهو في موطن الرثاء ففي إحدى مراثياته لحمزة شهيد أحد يقول :

غداة أجابت بأسياها جميعاً بنو الأوس والخزرج
فما برحوا يضربون الكُماة ويمضون في القسطل المرهج

* القسطل : الغبار ، المرهج : الذي علا في الجو .

ولم يقصر كعب فخره بقومه على مواقفهم في الحروب بل افتخر بهم في السلم حين تجذب الأرض ويجف الزرع والضرع فتراهم الكرماء وذلك في قوله :

فإن تسألني ثم لا تكذبني بخبرك من قد سألت اليقينا
بأننا ليلي ذات العظام كنا ثمالاً لمن يعترينا
تلوذُ البُجودُ بأذرائنا من الضر في أزمت السينا

* الليالي ذات العظام : ليالي الجوع التي تجمع فيها العظام وتطبخ لاستخراج ودكها فيؤتدم به * الشمال : الغياث * يعترينا : يزورنا * تلوذ : تلجأ * البجود : جماعات الناس * الأذراء : الأكناف

* الأزمات : الشدائد .

وهكذا يخاطب من يخاطبها محبوبة أو غير محبوبة أنها إذا سألت عن قومه هنالك لا تكذب بل تخبر باليقين الذي تعرفه عن قومه فهم الغوث لكل من يزورهم في تلك الليالي القاسية التي يجمع فيها الناس العظام ليطبخوها حيث فقدوا اللحم وما أشد هذه الأيام التي تلجأ فيها جموع الناس إلى أكناف بيوتهم خوفاً من الضر الذي يحيق بهم في السنين الشديدة التي لا تحتل مجاعاتها .

وحسبنا ما قدمنا من نماذج فخر كعب بقومه .



شعر الوعيد والتحذير

لانتصار المسلمين في أول غزوة التقوا فيها بالمشركين أثره في رفع معنوية المسلمين ، فانطلق شعراؤهم على أثرها يهددون ويتوعدون أعداء الله .



وكم جاش هذا اللون خلال القصائد التي سبقت في مختلف الأغراض ، وهذا نموذج من الوعيد يسوقه كعب فيهدد قريشاً بجيوش المسلمين التي ستغزوهم في عقر دورهم وتطلع عليهم من (كداء) وهو موضع

بمكة وبين الجيوش جبريل وميكال وأشراف القوم وكأنه بهذا يخيف قريشاً ويبين لها أنها لا تحارب المهاجرين والأنصار وحدهم بل معهم ملائكة السماء . وأتى لقريش أن تنصدي لمعارك فيها ملائكة الله ، وهو بهذا يشير إلى ما جاء في القرآن في قوله تعالى «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ * إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

فيقول كعب :

فَلَا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وَارْقُبْ جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ
بَنَصْرِ اللَّهِ رُوحُ الْقُدُسِ فِيهَا وَمِيكَالَ فَيَا طَيْبَ الْمَلَاءِ

• الملاء : الملاء وهم أشراف القوم .



الهجاء

كان الجبن منقصة عند العرب ، وكان الرضا بالذل وصمة ، وكان عدم كسب مواقف البطولة معرة ومن تلك الأبواب يلج الشعراء إلى هجاء من يريدون هجاءه وذلك ما اتجه إليه كعب في هجاء ابن الزبيري في قوله :



فَسَلْ عَنْكَ فِي عَلِيَا مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا مِنْ النَّاسِ مَنْ أَخْزَى مَقَاماً وَأَشْنَعُ
وَمَنْ هُوَ لَمْ تَرَكَ لَهُ الْحَرْبَ مَفْخَرًا وَمَنْ خَدَّهُ يَوْمَ الْكَرْبَةِ أَضْرَعُ

• الكربة : الحرب • الأضرع : الذليل

وقدمنا قوله في هجاء قريش :

جاءت سخينة كَيَّ تُغَالِبُ رِبَهَا فليُغْلِبَنَّ مِغَالِبُ الْغُلَابِ



إبراز صفات المسلمين في المعارك واعدادهم لها

اتسم المسلمون في معاركهم مع عدو الله تحت راية رسول الله بصفات عني الشعراء بإبرازها ، وشغل الحديث عنها مشاعرهم وقوافيهم .

(أ) وكان الصبر في المواقف وعدم الفرار حين يستحر القتال من الصفات التي عرف بها المسلمون وصورها كعب في قوله :

صبرنا لهم والصبرُ منا سجيةٌ إذا طارت الأبرامُ نسمو ونرتقُ
على عادة تلکم جرينا بصبرنا وقدماً لدَى الغاباتِ نجري فنسبقُ

• الأبرام : اللثام • نرتق : نصلح

(ب) حب الاستشهاد في سبيل الله والحق ، وفي ذلك يقول كعب :
إن تقتلونا فدينُ الحقِ فطرتُنا والقتلُ في الحقِ عند الله تفضيلُ
وقوله :

فخرتم بقتلى اصابتهم فواضل من نعم المفضلِ

فاعتبر القتل في سبيل الله نعمة تفضل الله بها على الشهداء .
وبين مكانة شهيد الإسلام وقتيل الكفر في قوله :

شتان من هو في جهنم ثاوياً أبداً ومن هو في الجنان مخلدُ
(ح) ملاقاته الشجعان وبذل الغالي من الأموال في الدفاع عن الأحساب ، فقال :

جلادُ الكُماةِ وبذلُ التلادِ عن جُلِّ أحسابنا ما بقينا

(د) إعداد العدة :

عرف العرب في جاهليتهم بالغارة وحب الفتك ، وكثيراً ما تغنوا ببطولاتهم ، فلما جاء الإسلام هذب طباعهم ونظم شمائلهم ، فتجلت ضروب الشجاعة ولكنها لم تكن لحب الفتك وإراقة الدم للتشفي بل لخير الانسان والانسانية ، ومن ثم أعدوا للمعارك الإسلامية العدة من سلاح وعتاد قبل خوضها ولم يجبنوا عند لقاء الأعداء ، أو يفروا عند الزحف .

ومن أروع ما قيل في التقدم في المعارك قول كعب بن مالك :

نصِلُ السيفَ إذا قصُرْنَ بخطونا قدُماً ونُلحِقُها إذا لم تُلحَقِ
فترى الجماجم ضاحياً هاماتها بله الأَكْفُ كأنها لم تُخلقِ
ونُعِدُّ للأعداء كُلَّ مُقْلَصٍ ورَدٍ ومَحْجُولٍ القوائم أبلقِ

تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كَمَا تَهُم عِنْدَ الْهِيَاجِ أَسُودَ طَلٍّ مُلْتَقٍ
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الْكِمَاةَ حَتُّوفُهُمْ نَحْتَ الْعِمَاةِ بِالْوَشِيحِ الْمَرْهَقِ
أَمَرَ إِلَهُه بِرَبِّطِهَا لِعَدُوِّهِ فِي الْحَرْبِ إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ مَوْفِقِ

• الجماجم : الرؤوس * ضاحيا : بارزاً للشمس * بله : اسم فعل بمعنى : اترك * المقلص : الفرس الخفيف * الورد من الخيل : بين الكمية والأشقر * التحجيل : بياض في قوائم الفرس كلها ويكون في رجلين ويد وفي رجلين فقط وفي رجل فقط ولا يكون في اليدين خاصة * البلق : سواد وبياض وارتفاع التحجيل إلى الفخذين * تردي بفتح التاء : تسرع * الكماة : الشجعان * الطل : المطر الضعيف * ملتق : فيه زلق وطين والأسود عند ذاك تكون أشد هياجاً * العطو : تناول * الحتف : الموت * العماة : سحابة الغبار وظلمته * الوشيج : الرماح * المرهق : المذهب للنفوس .

وحول الإعداد للمعارك يدور كثير من شعر كعب بن مالك فيقول في إحدى قصائده :

أَجْبُونَا إِلَى مَا نَجْتَدِيكُمْ مِنْ الْقَوْلِ الْمُبِينِ وَالسَّادِ
وإِلَّا فَاصْبِرُوا لَجَلَادِ يَوْمِ لَكُمْ مَنَا إِلَى شَطْرِ الْمَذَادِ
نُصَبِّحُكُمْ بِكُلِّ أَخِي حُرُوبِ وَكُلِّ مُطَهَّمِ سَلِسِ الْقِيَادِ
وَكُلِّ طَمْرَةٍ خَفَقِ حَشَاهَا تَدْفُ دَفِيفَ صَفَرَاءِ الْجَرَادِ
وَكُلِّ مُقْلَصِ الْآرَابِ نَهْدِ تَمِيمِ الْخَلْقِ مِنْ أُخْرَى وَهَادِي
يُنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مَصْغِيَاتِ إِذَا نَادَى إِلَى الْفَرْعِ الْمَنَادِي

• الاجتداء : الطلب * الشطر : الناحية * المذاد : موضع بالمدينة * المطهم : الفرس التام الخلق الطمرة : بتشديد الطاء المكسورة وتشديد الراء المفتوحة : الفرس الجواد ، دف الطائر : حرك جناحيه ، المقلص : الشديد الآراب : قطع اللحم * النهدي بتشديد النون المفتوحة : الغليظ * الهادي : العنق • الأعنة : اللجم .

يطلب الشاعر من الأعداء الصبر على جلاذ يوم يجتمعون فيه ناحية المذاد حيث يصبحون هناك بكل مؤاخ للحروب مدرب على أهوالها وبكل جواد سلس وبكل فرس كذلك تتحرك كأنها الجراد وبكل شديد اللحم مكنتر ضخم العنق ، وكل تلك الخيول تنازعنا الأعنة وهي مصغية حينما تسمع صوت المنادي وكأنما دربت على الانطلاق حينما تسمعه إلى حيث مصدره .



شعر الغزوات

بِإِ

جيوش المؤمنين الذين عاهدوا الله ورسوله على البذل ، وتحت ألوية التوحيد غزا كعب بن مالك وشهد غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غير بدر وتبوك ، غزا ومعه سيفه الصارم ولسانه البتار وقلمه المصور ، غزا فأبلى وأحسن البلاء فكما أرسل مهنده وسانه أرسل لسانه بصور ، ويتحدث عن الإسلام وما جاء به ، وما يدعو إليه ، وتوعد الجاحدين بالقوة الإلهية التي تحتاج المعاندين ، وفي بعض شعره في الغزوات تراه المؤرخ الذي يذكر أسماء القتلى في المعارك . وما كان يهدأ غبار المعارك حتى يسترجع خواطره وما فيها من صور ثم يترجم الصور والمشاهد شعراً عاش على الزمن حياً ينقل للأجيال صور المعارك الإسلامية وما كان فيها من بطولات وكثيراً ما هزته نشوة الانتصار في بدر فرجع إليها يستثير بها الهمم ، ويكشف ظفر القلة المؤمنة على الكثرة الباغية ومما قال في بدر وتعرض فيه لذكر أسماء رءوس الكفر الذين صرعه المسلمون قوله :

وقد عربت بيض خفافاً كأنها	مقاييس يزُهِيهَا لعينيك شاهرُ
فَكَسَبَ أبو جهلٍ صريعاً لوجهه	وعتبه قد غادرته وهو عائرُ
وشية والتيمي غادرن في الوغى	وما منهم إلا بلدي العرشِ كافرُ
فأمسوا وقودَ النارِ في مُستقرِّها	وكل كفورٍ في جهنم صائرُ
تلظى عليهم وهي قد شبَّ حميها	بزبر الحديد والحجارة ساجرُ
وكان رسول الله قد قال اقبلوا	فولوا وقالوا انما انت ساحرُ

* البيض : السيوف * تلظى : تلهب * شب : أوقد * زبر الحديد : قطعه * الساجر : الموقد .
وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة ساق معاني قرآنية لا تخفى على القاريء .



ومن قصيدة طويلة له في احد قال :

فجئنا إلى موجٍ من البحر وسطه	أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومُقَنَّعُ
ثلاثة آلافٍ ونحن نصيبةُ	ثلاثُ مئينٍ إن كثُرنا وأرْبَعُ
نُغاورُهُم تجري المنية بيننا	نُشارِعُهُم حوض المنايا ونُشرعُ
تَهَاوَى قِسيَّ النبعِ فينا وفيهمُ	وما هو إلا اليرْبِيُّ المَقْطَّعُ
ومنجُوفَةٌ حَرَمِيَّةٌ صاعدية	يُدْرُ عليها السَّمُّ ساعة تُصْنَعُ
تَصُوبُ بأبدان الرجال وتارةُ	تَمُرُّ بأعراض البصار تُقَعِّعُ

وخيل تراها بالفضاء كأنها جرادُ صبا في قرّةٍ يتَرَبَّعُ
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحي وليس لأمر حمّه الله مدفعُ
ضربناهم حتى تركنا سرائهم كأنهم بالقاع خشبٌ مُصرَعُ

* النصيحة : خيار القوم * المناورة : المداولة * نشارعهم : نشاربهم * ونشرع : نشرب
* النبع : شجر تصنع منه القسي * الثربي : الأوتار نسبة إلى يثرب * المنجوفة : السهام * الحرمية :
نسبة إلى الحرم وأهله * الصاعدية : نسبة إلى صاعد صانعها * البصارة : حجارة لينة * تقعقع :
تصوت * الصبا : ريح شرقية * يتريع : يجيء ويذهب * حمّه الله : قدره * سرائهم : خيارهم
* القاع : ما انخفض من الأرض .

في هذه الأبيات يصور الشاعر جيش قريش في كثرته الزاخرة ، وكأن المسلمين لقوا به بجرأ مائجاً
يتوسطه الأحابيش من عبيدهم بين حاسر ومقنع ، وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف (وهذا نص شعري
يتلاقى مع النص التاريخي) أما المسلمون فكانوا ثلاث مئتين وأربع من خيار القوم .

وصور الشاعر حركة المعركة بين الجيشين وهما يتداولان التقدم والتقهقر والمنية تجري بينهم فتنهش
أظفارها من تناله ، والمسلمون يسوقون أعداء الله إلى أحواض المنايا تارة ويساقون تارة والقسي تعمل عملها
بين هؤلاء وأولئك وللأوتار الثربية والسهام الحرمية الصاعدية التي ذرع عليها السم أثناء صنعها عملها في الأجساد
وهي تقع تارة بأبدان الرجال فتمزقها وتارة تخيب فتنطلق بين الأحجار اللينة تصوت ، والخيل تنطلق كأنها
جراد ريح شرقية تجيء وتذهب في بردها ، وحينما دارت الرحي والتقى الجيشان ونزل بالقوم أمر الله
الذي لا عاصم منه ضرب المسلمون المشركين حتى تركوا أخبارهم وهم خشب مصرعة .



وله في أحد كثير من القصائد بل الروائع وحسبنا مما قال الأبيات التالية :

ويوم له وهجٌ دائمٌ شديدُ أوارالقتا
شديد التهاولِ حامي الأرينا ل تنفي قواجزه المقرفينَا
طويلُ تحالُ الكمأة بأعراضه نعالورُ أيمانهم بينهم
ثمالاً على لذّة منزفينا كنوس المنايا بحدّ الظئينا
وتحت العماية والمعلمينا شهدنا فكنا أولى بأسه
وبُصْرِيّة قد أجمنَ الجفونا بخُرس الحسيس حسان رواء
وما ينتهين إذا ما نهينا فما ينقللن وما ينحنين

* الوهج : الحرب * التهاول : الهول * الأرين : جمع إرة : مستوقد النار * الأوار : لهب الحرب
 * القواحز من القحز : وهو القلق * المقرفون : اللثام * الكمأة جمع كمن وهو الشجاع المستتر في سلاحه
 * الأعراض : النواحي * الشمال : السكارى * المتزفون : الذين انزفت الخمر عقولهم * التعاور :
 التداول * الظيينا : جمع ظبة : وهي حد السيف * العماية : السحابة أو ظلمة الغبار * المعلمون :
 من يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة تحدياً للأعداء * الخرس : التي لا صوت لها ويقصد السيوف
 والرؤاء بالراء المشدودة المكسورة : الممتلئة بالدم * بصرية منسوبة إلى بصرى وهي مشهورة بصنع
 السيوف * أجمن : ملن * الجفون جمع جفن : وهو غمد السيف .

بهذه الأبيات من قصيدة طويلة يقدم الشاعر صورة ليوم من أيام الكفاح الإسلامي (يوم أحد) فالمعارك
 الدامية فيه اشتد هولها ، وحمي موقدها وقد طال ذلك اليوم واشتد لهبه ، ونفى القلق الذي ساد في ذلك اليوم
 اللثام عن القتال فلم يبق القلق بين الساحة لثيما ، وإنك لتحسب الشجعان في نواحيه سكارى ذهبت عقولهم
 وتداولت أيمانهم مع الأعداء كثوس الموت بحد السيوف ، فكل يقدم كأس المنية لمن ينازله .

ولقد شهدنا ذلك اليوم فكنا أصحاب بأسه وقوته ، وكنا تحت ظلماته ، وكنا المعروفين بما نحمل من
 علامات تميزنا وكأنها تشير إلينا ، وقد شهدناه بسيوف حسان تعمل ولا صوت لها وقد امتلأت بالدم وبسيوف
 كذلك من صنع بصرى قد ملت الأغماد وهي لا تفل ولا تنحني ولا تنتهي عن الضرب إذا نهيت وهكذا
 قدم الشاعر صورة اليوم والشجعان وهم يتعاورون كثوس الموت ، وصور قوة سيوفهم وكرها للأغماد
 ومتانتها من حيث إنها لا تفل ولا تنحني ولا تكف .



إجلاء بني النضير

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ،
 فتأمروا على إسقاط صخرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوق البيت الذي يجلس
 إلى جانب جداره فجاءه الخبر من السماء بما دبروه ، فقام وقفل راجعاً إلى المدينة ، وأمر الناس بالتهيؤ للحرب
 وخرج إليهم فتحصنوا بالحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم وإحراقها ، فلما رأوا ما حاق
 بأموالهم سألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، ولهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ،
 فخرجوا إلى خيبر ، وسار بعضهم إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ونزل في بني النضير سورة الحشر .

وتناول كعب بن مالك في قصيدة طويلة إجلاء بني النضير ومقتل كعب بن الأشرف ، وقد كانت أم
 كعب بن الأشرف من بني النضير ، ولما سمع بنصر المسلمين في بدر هاله ذلك وخرج إلى مكة وأخذ يبكي

قتلى بدر من المشركين في شعر ناثر يحرض به القرشيين على المسلمين ، ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فقال الرسول : من لي بابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، ثم اتفق معه سلكان بن سلامة (وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة) وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر ، وخرجوا ، واستدرجوه سلكان من حصنه فمشى به ساعة ، ثم حمل عليه وحمل أصحابه معه فقتلوه ، وفرغ اليهود حينما علموا بمقتله

وهذه أبيات من تلك القصيدة التي يسوق فيها الشاعر كمؤرخ مصرع كعب بن الأشرف وإجلاء بني النضير ، وليس في القصيدة شيء من الجمال الفني السامي لأن الشاعر كان فيها قصاصاً يسرد فيها كيفية قتل كعب وإجلاء بني النضير في أسلوب لا يعدو أن يكون نظماً للحوادث حيث يقول :

فغودر منهم كعب صريعاً	فذلت بعد مصرعه التَّضْيِيرُ
على الكفين ثمَّ وقد علته	بأيدينا مُشَهَّرَةً ذُكُورُ
بأمر محمدٍ إذ دسَّ ليلاً	إلى كعب أخا كعبٍ يسيرُ
فماكره فأنزله بمكرٍ	ومحمود أخو ثقة جسورُ
فتلك بنو النضير بدار سوء	أبارهم بما أجترَمُوا المَبِيرُ
غداة أتاهم في الزحف رهوا	رسول الله وهو بهم بصيرُ
فذاقوا غبَّ أمرهم وبَـالاً	لكلِّ ثلاثة منهم بَـعِيرُ
وأجلوا عامدين لِقَيْنَقَاعٍ	وغودِرَ مِنْهُمْ نَحْلٌ ودورُ

• والمشهرة الذكور : السيوف المسلولة من أغمادها • أبارهم : أهلكهم • المبير : المهلك • الرهو : السير السهل • غب : عاقبة • الوبال : العذاب .

وأشار بقوله : لكل ثلاثة منهم بعير إلى الكيفية التي خرجوا عليها حيث ركب كل ثلاثة منهم بعيراً ، وكان اتجاههم إلى قينقاع وهم قبيلة يهودية كذلك .



بدر الآخرة

أبو سفيان تواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحذني لقاء آخر في بدر فخرج الرسول وأقام في بدر ثماني ليال ينتظر أبا سفيان على رأس جيشه ، وخرج أبو سفيان إلى عسفان أو الظهران ، ثم أمر الناس بالرجوع ، فرجعوا



وسماهم أهل مكة جيش السَّوَيْقِ حيث قالوا لهم : إنما خرجتم تشربون السويق وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد لميعاده صدقاً وما كان وافيًا
فأقسم لو وافيْتَنَا فلَقَيْنَا لأبنتَ ذَمِيمًا وافْتقدت المواليا

• أب : رجع • افتقدت : فقدت • الموالى : قصد بها القرابة .



غزوة الخندق أو الأخراب

وقوله نفر من اليهود على قريش ودعوههم إلى حرب محمد واستئصال قوته ، وكان ذلك في شوال سنة خمس ، فخرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان ، وخرجت غطفان وعلى رأسها عيينة بن حصن ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروجهم ضرب الخندق حول المدينة ، وأقبلت قريش في عشرة آلاف ومعهم الأحابيش وأهل كنانة وتهامة فنزلوا بمجتمع الأسياال وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فنزلوا إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فجعلوا ظهورهم إلى سلع (جبل بالمدينة) وكان عدتهم ثلاثة آلاف ، واشتد خوف المسلمين حين أتاها أعداؤهم في تلك الجموع الكثيفة من فوقهم ومن أسفل منهم ، و طال الحصار ولم يقع خلاله إلا بعض مبارزات بين أفراد من المشركين اقتحموا الخندق وبين بعض أبطال المسلمين .

وأوقع الله الفتنة بين قريش وغطفان من جانب وبين بني قريظة (اليهود) من جانب آخر ، ثم بعث الله عليهم الريح في ليل شتية شديدة البرد فكفأت قدورهم وأطارت خيامهم فطاروا مع الريح وطارت معها شوكتهم ، وشتت الله شملهم ثم خرج الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى بني قريظة فحاصروهم ثم حكّم فيهم سعد بن معاذ ، فحكم بقتلهم ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .

وقد صور كعب بن مالك غزوة الخندق في قصيدة مطلعها :

وسائلةٌ تُسائلُ ما لقينا ولو شهدت أرتنا صابرينا
وباب الخندقين كأنَّ أسداً شوابكهن يحمين العربنا
إلى قوله : كما قد ردكم فلا شريداً بغيطكم خزايا خائينا

خزايا لم تنالوا ثمَّ خيراً وكيدتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم فكنتم تحتها متكتمينا

* الشوابك : التي يتشبث بها فلا يفلت * الفل : المنهزمون * الشديد : الطريد * الدامر : الهالك
* المتكتم : الأعمى الذي لا يبصر .

بهذا النص يكشف الشاعر عن حقيقة رواها التاريخ وهي رجوع الأحزاب دون حرب وقد شردوا في الآفاق وكادوا يهلكون ويأتقي البيت الأخير مع قوله تعالى « يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » . (الأحزاب) ويصور الشاعر في الشطر الأخير حالة الأحزاب وقد عميت أبصارهم حينما هبت عليهم الريح العاصفة .



وقال كعب في غزوة الخندق كذلك من قصيدة طويلة :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يَمْعَمِيعُ بَعْضُهُ بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُحْرَقِ
فَلَيَاتٍ مَأْسَدَةً تُسْنُ سِيوفُهَا بَيْنَ الْمَذَاذِ وَبَيْنَ جَزَعِ الْخَنْدَقِ
دَرَبُوا بِضَرْبِ الْمُعْلَمِينَ وَأَسْلَمُوا مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخْطُ فُضُولُهَا كَالسَّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ الْمَتَرَقِرِ
بِضَاءٍ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا حَدَقَ الْجَنَادِبِ ذَاتُ شَكٍّ مُوثِقِ

* المعمة : صوت التهاب النار * الأباء : العصب * المأسدة : موضع الآساد * المعلمون : الذين ميزوا أنفسهم في الحروب بعلامة * السابغة : الدرع * تخط فضولها : ينجر على الأرض ما فضل منها * السهي : بتشديد النون المكسورة الغدير * المترق : الذي تصفقه الريح فيجيء ويذهب * القدير : مسامير الدرع * الجنادب : ذكور الجراد * الشك : إحكام السرد .

قدم الشاعر في هذه الأبيات صورة لبعض ما وقع من ضروب المبارزة بين الشجعان الأقوياء ، ورأى أن ذلك الضرب العنيف يسر الشجعان حيث يشد أنظارهم وأسماعهم صليل السيوف وحركتها ، وفي قعقة أصواتها ما يشبه قعقة القصب حين تلتهمه ألسنة اللهب ، فمن شاء رؤية ذلك فليأت تلك المأسدة التي تسن سيوف أصحابها بين مراتع الخيول والوادي الذي لا شجر فيه عند الخندق فأولئك تدربوا على ضرب الذين علموا أنفسهم بعلامة يعرفون بها وكانهم دربوا على ضرب من يتحداهم وقد أسلموا أرواحهم لربهم ولأنهم ليلبسون الدروع السابغة التي انخطت فضولها حتى انجرت على الأرض وهي تروح وتجيء كأمواج الغدير التي حركتها الريح ولأنها محكمة النسيج وكأن مساميرها حدق ذكر الجراد وهي ذات إحكام وتوثيق .

وله في الخندق قصيدة مطلعها :

ألا أبلغ قريشاً أن سلعا وما بين العريض إلى الصّمد
ومنها :

فلم نَرَ عصبةً فيمن لِقِينَا من الأقوام من قارٍ وبادٍ
أشدَّ بَسَالَةً منها إذا ما أردناه وألَيْنَ في الودادِ
إذا ما نحن أَسْرَجْنَا عليها جِادَ الجُدُلِ في الأربِ الشَّدَادِ
قَدَفْنَا في السَّوَابِغِ كُلَّ صَقْرٍ كريمٍ غير مُعْتَلِثِ الزَّنَادِ
أَشْمَ كَأَنَّهُ أَسَدٌ عبوس غداة بدا بطن الجزع غادي
يُغَشِّي هامةَ البطل المذكَى صَبَى السيفِ مُسْتَرْخِي النِّجَادِ
لِنُظْهِرَ دينك اللهم إنا بكفك فاهدنا سُبُلَ الرِّشَادِ

* سلع : جبل بالمدينة * العريض : واد بالمدينة * الصمد : جبل * القارى : من كان من أهل القرى والباد من كان من أهل البادية * البسالة : الشجاعة * أشرجنا : ربطنا * الجدل : الدروع المحكمة * الأرب : العقدة الشديدة * السوابغ : الدروع * اعتلت الرجل زناداً : أخذه من شجر لا يدري أيورى أم لا ؟ * الأشم : العالي العزيز * المذكى : الذي بلغ الغاية في القوة * صبى السيف : وسطه ، * النجاد : حمائل السيف

إن الشاعر ليفخر بقومه حيث لا يرى بسالة أشد من بسالتهم بين القرى والبوادي إذا ما أرادوا الضرب الذي تحدث عنه في أبيات سابقة وهم إلى جانب سطوتهم وقوتهم ألين في جبههم من غيرهم فهم البسلاء إذا ما ضربوا واللينون إذا ما أحبوا وبسالتهم تتجلى حين يربطون الدروع ويشدون عقدها ، وكأنهم يقذفون في الدروع كل صقر كريم مستعد للحرب عالي الأنف كأنه الأسد في عبوسه حين يغدو بطن الجزع ، وحين يضرب بوسط سيفه هامة البطل الذي بلغ غاية قوته وقد بدا نجاهه الطويل المسترخي إلى جانبه يشير إلى طوله كل ذلك يكون لإظهار دين الله وإعلاء كلمته ، ثم ختم قصيدته بالدعاء إلى الله أن يهديهم ومعاركهم سبل الرشاد .



وقد تناول كعب بن مالك تصوير يوم ذي قرد وخير والطائف ، ونسوق بعض أبيات من قوله في غزوة الطائف :

قال منها :

قضينا من تهامة كل ريبٍ وخير ثم أجممنا السيوفنا

نُخَيْرَهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا
 وَمِنْهَا : قَلَسْتُ لِحَاضِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِثْنًا أَلُوفًا
 وَيَأْتِيَكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْلٍ يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفًا
 إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِكُمْ سَمْعَمٌ لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفًا
 بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبٌ مَرَهَفَاتُ يَزِدُّنَ الْمُصْطَلِينَ بِهَا الْخُتُوفَا
 وَمِنْهَا : وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلْبُوا عَلَيْنَا صَمِيمِ الْجِذَمِ مِنْهُمْ وَالْخَلِيفَا
 أَنْوْنَا لَا يَرُونَ لَهُمْ كِفَاءً فَجَدَدْنَا الْمَسَامِيعَ وَالْأَنْوَا
 بِكُلِّ مُهَنْدٍ لَيْنٍ صَقِيلٍ نَسُوقُهُمْ بِهَا سَوَقًا عَنِيفًا
 وَتُنْسَى اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَوَدَّ وَتَسْلُبُهَا الْقَلَائِدَ وَالشَّنُوفَا



* الريبة : الشك * أجمنا : أرحنا ومنه الاستجمام * نخيرها : تعطيتها الخيرة * الحاضن : المرأة التي تحضن ولدها * السرعان : المتقدمون * الكثيف : الملتف * الرجيف : الصوت المضطرب * القواضب : السيوف القواطع * المرهفات : الحادة القاطعة * المصطلون بها : الذين باشروها واصطلوها بجرحها * الختوف جمع ختف : الموت * ألبوا : جمعوا * الصميم : الخالص * الجذم : بكسر الجيم : الأصل * الجدع : القطع * المهند : السيف * اللين مخفف لين بتشديد الياء * الصقيل : المصقول * الشنوف جمع شنف بفتح الشين وهو قرط يعلق في أعلى الأذن وما يعلق في أسفلها هو القرط ، واللات والعزى وود (آلهة كانت تعبد ...)

بين الشاعر في هذه الأبيات أنهم انتهوا من معارك تهامة وخيبر ثم أراحوا السيوف حيناً ، ثم خيروها بمن تبدأ بعد ذلك ، ولو نطقت لكتفت : أريد دوساً أو ثقيفاً ، وبعد أبيات بدأ تهديده لهم فقال لست لامرأة حضنتي وربتي أو لحاضن بالصاد وهي العفيفة أي لست ابن عفيفة راشدة إن لم تفاجئكم السيوف وإن لم تروا بأفناء دوركم ألوفا تجز الأعناق والنواصي واستطرد في وعيده بأنهم ستأتيهم طلائع الخيل ووراءها الجموع الكثيفة من جيوش المسلمين فإذا نزلوا ستسمع الساحة اضطراباً شديداً يشير بذلك إلى الكثرة التي تتهددهم ثم كشف عن قوة سيوفهم التي تزيير كل من يتصدى للمسلمين ساحة الموت .

ثم راح الشاعر يخوفهم فعرض عليهم صورة القبائل التي جمعت جموعها وألقت في المعارك بأصولها وحلفائها وظنوا حين شنوا غاراتهم علينا بأننا لسنا أكفاء لهم فلم يقاتلوا بأيدينا فحسب ، بل قطعنا آذانهم وأنوفهم (لم يرو التاريخ أن المسلمين مثلوا بجثث قتلاهم في معركة من المعارك الإسلامية أتراها مبالغة شعرية من شاعرنا ؟ أم تراه التهديد والإرهاب ؟ أم تراها القافية حكمت بهذا التخييل ؟ حيث لم يثبت في التاريخ الإسلامي ذلك التمثيل) . وقد ساقوهم سوقاً عنيفاً بكل سيف لين مصقول وأنسوهم آلتهم التي ظالما

عبدوها وهي اللات والعزى وود وطالما قدموا لها القرابين والهدايا وعلقوا بها القلائد والشنوف ولكن المسلمين سلبوا ذلك الذي قدمه الموسرون السذج لهذه الآلهة .

المراثي

رثى كعب بن مالك وترجم في مراثيه عن الأحزان والآلام ، وكان رثاؤه في حمزة وقتلى مؤتة من أجود ما قال في الرثاء وقد تناول رثاء شهداء احد وبينهم حمزة في قوله :



فكلهم مات حرّ البلاء على ملة الله لم يخرج
كحمزة لما وفى صادقاً بذى هبة صارم سنجج
فلاقاه عبد بني نوفل يبربر كالجمل الأدعج
فأوجره حربة كالشهاب تلهب في اللهب الموهج

* حر البلاء : خالص الاختيار * لم يخرج : لم يأت ، بذى هبة : يقصد السيف وهبة السيف وقوعه بالعظم
* الصارم : القاطع * السنجج : المرهف * عبد بني نوفل : وحشي قاتل حمزة * يبربر : يصيح
* الأدعج : الأسود ، أوجره : طعنه * الشهاب : القطعة من النار ، الموهج : الموقد .

وبهذه الأبيات بين أن أولئك الذين استشهدوا في أحد أخلصوا وماتوا على ملة الله بلا إثم وبينهم حمزة الذي وفى بسيفه الصارم المرهف في هذه المعركة ولكن عبد بني نوفل صاح كالجمل الأسود فطعنه طعنة تلهبت فيه كاللهب الموقد فقصت عليه .



وفي قصيدة أخرى كشف عن مشاعره حيال فقد حمزة فقال :

ولقد هددت لفقد حمزة هدةً ظلّت بتات الجوف منها ترعد
ولو أنه فُجعت حراء بمثله لرأيت راسي صخرها يتبدد
قرم تمكّن في ذؤابة هاشم حيث النبوة والندى والسودد
والعاقرة الكوم الجلاد إذا غدت ريح يكاد الماء منها يجمد
والتارك القرن الكمي مجدلاً يوم الكريهة والقنا يتقصّد
وتراه يرقل في الحديد كأنه ذو لبدة شئت البرائن أربد
عم النبي محمد وصفيته ورد الحمام فطاب ذاك المورد

* بتات الجوف : القلب والأحشاء * ترعد : تضطرب ، حراء : جبل * الراسي : الثابت * القرم :

السيد الشريف * ذؤابة هاشم : أعاليها * الكوم : جمع كوماء وهي العظيمة السنام من الإبل
 * الجلال : القوية * القرن : النظير * الكمي : الشجاع * مجدلا : مطروحاً * الكريمة : الشدة
 والحرب * يتقصد : ينكسر * يرفل : يتبختر * ذو لبدة : الأسد * شثن : غليظ * البرائن :
 للسياح : كالأصابع للإنسان * الأربد : الأغبر بخالطه سواد * الحمام : الموت .
 وقال أيضاً :

صفية قومي ولا تعجزني وبكى النساء على حمزة
 ولا تسأمني أن تطلي البكا على أسد الله في الهزة
 فقد كان عزاً لأيتامنا وليث الملاحم في البزة
 يُريد بذاك رضا أحمدٍ ورضوان ذي العرش والعزة

* الهزة : الاهتزاز والاختلاط في الحرب ، الملاحم : جمع ملحمة وهي الحرب ، البزة : السلاح .



وفي قتلى مؤتة أرسل نفثات قلبه الجريح حيث قضى هنالك القواد الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي
 طالب وعبدالله بن رواحة الأنصاري الشاعر وتلك أبيات من قصيدة في قتلى مؤتة قال :

نام العيونُ ودمعُ عينك يهملُ سحاً كما وكف الطَّبَابُ المَخْضَلُ
 في ليلةٍ ورَدَتْ علي همومُها طورا أحنُّ وتارة أتمَلَمَلُ
 واعتادني حزنٌ فبتُّ كأنني بينات نعشٍ والسَّمَاءُ مُوَكَّلُ
 وكأنا بين الجوانح والحشى مما تأوَّني شهابٌ مُدْخَلُ
 وجَدًّا على نفر الذين تتابعوا يوما بمؤتة أَسْتَدُوا لم يُنْقَلُوا
 صلى الإله عليهم من فتية وسقى عِظَامَهُم الغمامُ المسبَلُ
 صَبَرُوا بمؤتة للإله نفوسَهُم حَذَرَ الردى ومخافة أن يَنْكَلُوا
 فمضوا أمام المسلمين كأنهم فُنُقٌ عليهنَّ الحديدُ المرفَلُ

* همل ، همل الدمع : سال * السح : الصب * وكف : قطر * الطباب جمع طبابة وهي
 سير بين خريزتين في المزايدة فإذا لم يكن محكماً قطر منه الماء * المخضل : السائل * التملل : التبرم
 والقلق .

بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب * السماك : برج في السماء * المدخل : النافذ إلى الداخل * أستودوا : حاربوا تحت رايات شتى * لم ينقلو : لم تتغير حالهم * الغمام : المسبل : المطر * الردى : الموت * ينكلوا : يرجعوا هائبين من عدوهم * الفتى : فحول الإبل الواحد فتيق * المرفل الذي تنجر أطرافه على الأرض .



نظرة في شعر كعب

بعد أن قدمنا الكثير من النماذج لشعر كعب والتي أردنا بها أن نضع ذلك الشاعر في المكان الملائم لتلك الشاعرية تستطيع عندئذ أن تدرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم إليه كعب لأول مرة في الكعبة فقال : كعب الشاعر ؟ فقصى له بالشاعرية لم يكن ليقضي بذلك لولا أنه بلغه من شعره قبل إسلامه ما رآه أهلاً للحكم بأنه الشاعر وحسبه شهادة الرسول ومع هذا فتلك النماذج بين يديك ودون التأثير بحكم تستطيع أن تقرأ في دقة وتمحيص لتخرج كما خرجنا بالحكم له بأنه مصور دقيق يتخذ من الكلمات المناسبة مادة للصورة وتلك صورة لجيش المشركين وقوامه ثلاثة آلاف سوى الأحابيش يرى الشاعر في ذلك العَدَدَ العظيم والعُدَدَ التي يموج فيها من الدروع والسيوف والحراب وكها يلمع تحت أضواء الشمس ما يشبه البحر المائج فيقول :

فجئنا الى موج من البحر وسطه احابيش فيهم حاسرو مقنَّعُ

فيكشف بذلك عن صورة تصطبَّخ فيها الكثرة والحركة واللون وفي وسط الموج المتقلب صورة أشبهتها صورة الأحابيش وهم بين حاسر تجلى سواده الفاحم ومقنَّع ستر سواده بقناع أبيض ويقدم في نفس القصيدة صورة السهام وهي تقع تارة بأبدان الرجال وتارة لا تصيب الهدف فتنتقل في الحجارة اللينة ترعد أصواتها في قوله :

تصوب بأبدان الرجال وتارة تمر بأعراض البصار تقعقعُ

ويقدم صورة للخيال تسبح في الفضاء كأنها جراد حاجته ريح الصبا الباردة هنا وهناك فهو يذهب ويجيء وهكذا تكون صورة الخيل حين يكر بها الفرسان حيناً ثم يرجعون ليهتبلوا فرصة للكر فهي كذلك تربع وتجيء وتذهب وذلك في قوله :

وخيل تراها بالفضاء كأنها جراد صبا في قرّة يتربّعُ

ويقدم في نفس القصيدة صورة للصحارى والجبال وكأن سوادها يترأى من البعد كغبار ساكن منقطع وذلك في قوله :

صحار وأعلام كأن قتامها من البعد فَنَقَعَ هَامِدٌ منقطع



واك

شاعرنا هذا صادق كل الصدق في التصوير فهو ابن بيئته ترجم كل ما أهتمته له البيئة في صور كأنها لوحات مصور تفنن في إضفاء الألوان والظلال عليها فعاشت على الأجيال يرى فيها المسلمون أمجادهم ويرى فيها العرب صور البادية في صحارها وأعلامها وعينها وآرامها ونعماتها تلك البادية التي أنجبته ، وكأننا ونحن نردد شعر كعب نعيش معه في عصره ، ونلاحظ بأبصارنا روائع المشاهد التي أهتمته الصور .

وكأننا نرى صورة سلع والعريض والصماد وحدائق النخيل التي تروى بالنضح والآبار الضيقة التي حفرت من عهد عاد وهي ثابتة دائمة يعلو فيها نهر المزار ، وكأننا نرى الغاب والبردى الغليظ الصوت الذي إصفر للحصاد كأننا نرى ذلك كله حين نقرأ له :

ألا أبلغ قريشاً أن سلعا وما بين العريض إلى الصماد
نواضح في الحروب مدرباتٍ وخوصٌ تُقَبَّت من عهد عاد
روأكيدٌ يزخرُ المزار فيها فليست بالجمام ولا الثماد
كأن الغاب والبردى فيها أجشٌ إذا تَبَقَّع للحصاد

• سلع والصماد : جبلان • العريض : واد • النواضح : النخيل التي تسقى بالنضح • الخوص : الآبار • المزار : نهر ، الجمام جمع جمّة وهي البئر الكثيرة الماء • والثماد : الماء القليل : أجش : عالي الصوت ، تبقع : أصفر .



وليس

ثم من شاعر عربي جاهلي أو مخضرم لم يتحدث عن الخيل لأنها العماد الثاني لذلك المجتمع الذي عاش في جاهليته وصدر إسلامه بين غبار المعارك الذي لا يخمّد إلا ليشتعل ، ومن ثم اعتمدوا على الخيل في تلك الحروب واعتمادهم ذلك دعا شعراءهم إلى الحديث عنها في أشعارهم كسلاح هام من أسلحة القتال أو كعمدة من عُدده ولأننا قلنا إن شاعرنا ابن بيئته المصور المعبر عنها نرى أنه لا بد قبل أن نختتم الحديث عنه أن نقدم صورة للخيل في شعره : قال في قصيدة مطلعها :

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الْحُرُوبِ بَقِيَّةٌ مِنْ خَيْرِ نَحْلَةٍ رَبَّنَا الْوَهَّابُ

ونزائعاً مثل السَّراح نَمى بها علف الشعير وَجِزَّةُ الْمُقْضَابِ
قُوداً تَرَاخُ إِلَى الصَّيَاحِ إِذَا غَدَت فِعْلَ الضَّرَاءِ تَرَاخُ لِلْكَلاَّبِ
وتحوطُ سائمةَ الدِّيارِ وَتَارَةً تُرْدَى العِدا وَتَتَوَّوبُ بِالْأَسْلَابِ

* الترائع : الخيل العربية التي حملت من أرضها إلى أرض أخرى * السراح : الذئب جمع سرحان
* جزة المقضاب : ما يجز من النبات ويقطع * قود : طوال * تراح بفتح التاء : تنشط * الضراء :
الكلاب الضارية في الصيد ، والكلاب بتشديد اللام الصائد صاحب الكلاب * السائمة : الماشية
المرسلة للرعي * تردى : تهلك ، تؤوب : ترجع .

كأننا بالشاعر يقدم الحديث عن الخيول التي غنمت أو التي اشترت ثم نقلت لتعيش في أرباض المدينة،
وشبهها بالذئب في سرعة عدوها وخفة حركتها وذكر الشاعر أن نموها كان بسبب علف الشعير وما يجز
لها من النبات بالمقضاب ثم صور جسدها فوصفه بالطول في قوله : قود وهو جمع أقود وقوداء ، ثم صور
نشاطها وحركتها حين تسمع الصياح فتفعل فعل كلاب الصيد حين تنشط وتنطلق وقد سمعت صوت الكلاب
(صاحبها) وهو يهيب بها نحو الفرائس وكأن الخيول دربت على الاندفاع حين تسمع الصياح .

وهذه الخيول ينتفع بها في السلم والحرب فهي في السلم تحوط السوائم وترعاها من سطوة الذئب
وأما في الحرب فهي مهلكة للأعداء وتؤوب بالغنائم والأسلاب .

وإننا حين نلقي نظرة على هذه الأبيات من تلك القصيدة الطويلة نلمس قوة (لبيد) وأسلوب لبيد وروح
لبيد وكأن انطباعات الجاهلين تنعكس على شعره فهو متأثر إلى حد كبير برعوس شعراء الجاهلية وإن كان
مخضرمًا وفي شعره الكثير من المعاني التي جاء بها القرآن والإسلام .

وقد لا نجد في هذا اللون الكثير من الوهن الذي ربما نراه في شعر غيره من شعراء صدر الإسلام الذين
اتهموا بضعف شعرهم الإسلامي ؛ لأنه مرتجل أو لأنه يحمل حقائق إسلامية صادقة

وقد قيل : إن أعذب الشعر أكذبه : والحقائق تجافي الكذب ، وربما كان سبب ضعف شعرهم ذلك
السرد التاريخي وقد لا يكون من إسراف القول إذا قلنا : إن كعب بن مالك قمة شعراء الرسول صلى الله
عليه وسلم وحسبه من بين الصحابة أن يكون واحداً من اثنين حملاً في سبيل الدعوة السيف والقلم هما :
كعب وابن رواحة فكان كعب صاحب السيف الذي نافح عن الإسلام ورسوله ونصر كلمته وكان صاحب
القلم الذي ذاد عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه هجمات شعراء قريش بل طعن فأدمى ووخز فأخزى
« جزاه الله وأحسن بين المجاهدين مثواه » ،